فى سبيل الأزهر

اعتراف ورجاء

للأستاذ محمد محمد المدنى

المدرس بكلية الشريعة

كتب الأستاذ الكبير صاحب الرسالة الغراء، سلسلة من مقالاته القوية الممتعة فى الأزهر وما يتصل بالأزهر من فقه ودراسة وخلق

وقد أثارت هذه المقالات فى نفسى باعتبارى مسلماً، وعالماً، ومدرساً فى الأزهر، عاملين مختلفين: أحدهما عامل الأسف والحزن والخجل من هذا السيل المتدفق الذى ينصب على رأس الأزهر فى الحين بعد الحين، بل مع كل مطلع شمس ومغربها، حتى أصبحنا لا نقرأ مقالاً، ولا نستمع إلى حديث، ولا نتصفح كتاباً إلا رأينا فيه لوناً من ألوان النقد العنيف موجهاً إلى الأزهر فى جموده وخموله، وركود الحياة العلمية فيه، وقصوره عن مجاراة الزمن، ومسايرة الحضارة العلمية التى رجت العالم، وتغلغلت فى كل نواحى الحياة!

أما العامل الثانى فهو عامل الأمل والرجاء، فى أن هذه العلل ما دامت غير مستحكمة ولا متأبية على الإصلاح، فهى قابلة للشفاء، وأن هذه الوخزات ما دام يحس بها أبناء الأزهر فهى دليل على الحياة فيه، وهى لا بد ستوقظه من سباته العميق، وستحمله على أن ينفض عن نفسه غبار هذا الكسل، وينخلع من هذا الثوب البالى الذى جلله بالعار، وديثه بالصغار، وسامه الذل والهوان!

لقد ساءلت نفسى: أحقاً أن فى الأزهر كل هذه العيوب التى يرميه الناس بها، أم أنهم يتجنون عليه ويتندرون على حسابه؟

وسرعان ما أجبت عن هذا التساؤل، فاعترفت بكثير من هذه العيوب، وعذرت الذين يلومون:

فى الأزهر من غير شك نواحى نقص عظيمة، ويجب أن نكون صرحاء إلى أبعد حدود الصراحة. وإذا جاز لكاتب مهذب كالأستاذ الزيات أن يجامل الأزهر، فلا يذكر كل ما يعرفه من عيوبه، حين يتناوله بالنقد، فإن ذلك لا يجوز لأزهرى يصطلى ليله ونهاره هذه النار المحرقة التى لا مناص له من اصطلائها بحكم عمله وطبيعة اتصاله ببيئته

لقد تدبرت هذه النواحى التى من أجلها يلام الأزهر ومن قِبَلها يؤتى، فوجدت أهمها عقيدة الأزهرى فى نفسه، وأسلوب الدراسة فيه.

فالأزهر ما زال — على الرغم من بزوغ شمس الإمام المراغى فى أرجائه — يدير حركته الفكرية على نحو من التعصب الجامد لكل ما يعلم، والرفض الجامد لكل ما يجهل. وما زال فيه من يقول: كفر فلان، وألحد فلان، وتزندق فلان، لأنه أخذ برأى غير مألوف، أو خالف شيئاً قال به إمام من الأئمة السابقين! وليس هذا التكفير والحكم بالفسق والزندقة شيئاً يرمى به غير الأزهريين فحسب، ولكن للأزهريين منه نصيباً غير قليل!

وإنك لترى غباراً يتطاير وشرراً يلمع، وتسمع دوياً يملأ أذنيك وضجة تدور من حولك، فتقول لنفسك هذه معركة علمية قد احتدمت، ولا بد أن تنجلى عن حقيقة يحسن السكوت عليها كما يقولون، أو عن فكرة إصلاحية تفيد منها الأمة فائدة تحفظها لرجال الأزهر

ويصدق ظنك من بعض نواحيه، فإذا هو عراك ولكن فى غير معترك، وشجار ولكن فى غير مشتجر، ثم تنجلى هذه المعركة كما بدأت، فلا الحقيقة العلمية وصلت إليها، ولا الأمة أفادت ما كان ينبغى أن تفيد؛ بل قل إنها تنجلى عن حالة هى أسوأ مما بدأت. فإذا كانت المعارك الحقيقية تسفر فى كثير من الأحيان عن كذا من القتلى، وكذا من الجرحى؛ فإن معاركنا الأزهرية تسفر كذلك عن كذا من الكفرة، وكذا من الفسقة، وكذا من الجهلة ... الخ

لست مبالغاً، أيها القارئ، وإنها للحقيقة المرة

لقد قال بعض العلماء رأياً فى «الشيطان» فى حديث له أذاعه بالراديو، خلاصته: أن «الشيطان» قد ورد ذكره فى القرآن على أساليب شتى، وأن المعنى المشترك فى كل الآيات التى عرضت للشيطان، أنه قوة الشر وعنصر الفساد فى هذا الوجود

هذا الرأى الذى يدل على تفكير ناضج وعقل رشيد، ويلتئم مع أحدث الآراء العلمية الصحيحة، ولا يعارض فى نفس الوقت شيئاً صريحاً من الدين — لا يمر كما يمر سائر الكلام، ولكن يوقف عنده، لا ليشكر صاحبه على توفيقه بين نصوص الدين

وآراء العلم ، ولكن ليُتهم بمخالفة النصوص ، وإنكار ما فى القرآن ، والخروج على الأحاديث !

ولولا أن صاحب الرأى رجل قوى ، محترم الرأي ، مرموق المكانة ، لا يؤكل لحمه ، لترددتُ فى هذا المجال كلمات الإلحاد ، والفسوق ، والزندقة ، والمروق ، ولكن الله سلم !

على رسلكم أيها السادة ! لماذا تفرضون دائماً فى كل من يخالفكم فى الرأى أنه سيء النية ، متهم الغرض ؟ ولماذا تفرضون دائماً فى أنفسكم أنكم قد وصلتم فى كل ما زعمتم إلى الحق ، فتدخلون فى كل بحث وكل نقاش على هذا الأساس ومع استحضار هذه الفكرة

وعمن أخذتم هذه الطريقة ؟ أعن كتاب الله ، وهو الذى يعظم شأن البرهان ويحكم العقل فى كل شيء حتى فى الإيمان بالله وينهى عن التنابز بالألقاب ؟

أم عن الرسول صلى الله عليه وسلم وقد كان المثل الأعلى فى حلمه وسعة صدره وصبره على الحوار والجدال ؟ ألم يكن الأعرابى الجلف يأتيه فيناديه باسمه المجرد ، ويغلظ له فى القول ، ويعنف عليه فى السؤال ، فلا يفسد ذلك من حلمه ، ولا يوهن من صبره ؟

فإذا لم تكونوا قد أخذتم هذه الطريقة عن الله ورسوله فعمن أخذتموها ؟ أعن علماء السلف ورجال المذاهب الأولين الذين كانوا يتناقشون ويتحاورون ويرجع بعضهم إلى رأى بعض ، ويخالف بعضهم بعضاً ، فلا يدفعهم ذلك الخلاف إلى تجريح أو تكفير ؟

أم أخذتموها من كتب البحث والمناظرة التى قتلتموها بحثاً وأفسدتموها شرحاً ، ولست أذكر أن فيها رسمت من أساليب الحوار سوى التدليل ودفع البرهان بالبرهان ومنع المقدمات .. الخ وليس فيها الوصف بالخروج على الآيات وإنكار الأحاديث !

هذا معنى فى الأزهر ما زال موجوداً ، وهو موجود على أشده فى بيئة أزهرية معينة يعرفها الأزهريون ولها صلة وثيقة بالجمهور !

فإذا رجعت إلى أسلوب الدراسة والكتب المقررة وجدت العجب العجاب . وكلمة (العجب العجاب) هذه كانت تقال فى زمن عبد القاهر الجرجانى وأبى هلال والشاطبى وغيرهم . كانوا يقولونها فى نقدهم لآراء مخالفيهم ؛ أما فى عصرنا الحاضر ، حيث النظريات الصحيحة الثابتة فى شتى نواحى العلوم ، وحيث السرعة والحرص على الزمن ، فإنى أرى كلمة « العجب العجاب » غير كافية للتعبير عما أقصد . وأعترف بالعجز عن اختيار لفظ مناسب يوصف به هذا التنكع العلمى الذى نسميه دراسة ، مع أن الدراسة دائماً تنتج الوضوح وحل المشكلات ، وهذا التنكع يقوم دائماً على التعقيد وخلق المشكلات !

لو أردت أن أضرب أمثلة كثيرة لهذا النوع من الدراسة ، لأتيت بالكثير ولوجد فيه قراء الرسالة طُرفا لا تدور لهم بخلد ، ولا تخطر لهم على بال ، ولكنى أكتفى الآن — والآن فقط — بأن أصف ما كان لذلك من أثر تحس به مناهج الدراسة !

ما زال علماء بعض الكليات يقرأون فى المنطق من أول العام إلى اليوم ، « وأرجو أن يلاحظ القراء أنه لم يبق من العام الدراسى إلا أيام معدودات » ، فلم يخرجوا بعد عن مقدمات هذا العلم ، ولم يصلوا إلى بحث من صميم أبحاثه !

وما زال الذين يدرسون علم الأصول من أول العام يتحدثون عن أدلة التشريع . أستغفر الله ، بل يسردون أدلة التشريع التى هى الكتاب والسنة والإجماع والقياس ، فأين هم اليوم ؟ إنهم لم يتجاوزوا تعريف الكتاب تعريفاً فنياً إلا منذ عهد قريب ، ومضى العام فى معرفة ما هو علم الأصول ، وما منزلته بين العلوم ، وما ثمرته ، الخ . بل ليس فى هذه الموضوعات خالصة ، فإن فيها على كل حال بحثاً علمياً مفيداً ، ولكن فى العبارات التى عبر بها المؤلف عن هذه المسائل ، وفيما نقده من هذه العبارات شراح الكتاب وحواشى الكتاب ! فأى ضياع هذا الضياع ؟ وعلى حساب من ؟

لماذا نحتفظ بأمثال هذه الكتب ، ونحرص عليها ، وفيها هذا الإرهاق وهذا البطء ؟ ولماذا نأزم بها أنفسنا وأبناءنا ؟ ألا إنها أثرية ؟ فأقيموا معهداً للدراسات الأثرية إن كنتم حريصين على الدراسات الأثرية إلى هذا الحد

هذه بعض العيوب التى يحس بها الأزهريون الناهضون أنفسهم قبل أن يحس بها الناس لهم . وفى الأزهر شباب ناهضون مستعدون للانتاج والعمل ، شباب أحسن الأستاذ الزيات فى تسميتهم « شباب المرانى » لأن الأستاذ الإمام هو قائدهم الروحى ، ليس فى الإدارة فقط ، ولكن فى العلم والخلق والإصلاح

ولقد وجد فيه الأزهر الحديث ضالته المنشودة ، فهو أول